دور الرسول الأعظم ﷺ

في تأصيل التنمية البشرية

التراحم أنموذجًا

السيد محمد صادق الخرسان

دورُ الرسول الأعظم ﷺ
في تأصيلِ التنميةِ البشرية
(التراحمُ أنموذجاً)

بحثٌ شاركَ به

سماحة السيد

محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان

في الندوة العلمية المنعقدة تحت شعار

«محمد رسول الله ﷺ رحمةٌ مهداة للبشرية جمعاء»

في العتبة الكاظمية المقدسة

٢٩/صفر/١٤٣٤هـ - ٢٠١٣/١/١٢م

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

الشؤون الفكرية والثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

سورة الأحزاب، الآية ٢١

المقدمة

الحمدُ للهِ ربّ العالمينَ.. والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ والمرسلين.. أبي القاسم محمد النبي الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين..

لا يخفى على أحد ما يتعرض له رسول الإنسانية محمد ﷺ بين الحين والآخر من هجمات وافتراءات هنا وهناك، ذلك الرمز الذي تفتخر به الموجودات كلها، إذ خاطبه الله عز وجلّ قائلا:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

فهي في حقيقتها شهادة وما أعظمها من شهادة، صدرت من خالق الأكوان بحق هذا الرجل البسيط في حياته.. وا لجليل القدر في الدور الذي مارسه.. لينهض بمجتمع قد توغل في ا لجهل والبداوة إلى مجتمع يسمو فوق كل عناوين الفضيلة والصفات النبيلة.. في زمن قياسي فريد لا يتكرر.. ولا يستطيع أن يفعل ما فعله النبي الكريم ﷺ -في ثلاث وعشرين عاما فقط- أكثر الناس ذكاءً وفكرا وعبقرية.

لقد أخذت العتبة الكاظمية المقدسة على عاتقها وضمن برنامجها الفكري والثقافي التصدي إلى نشر معارف النبي محمد وآله الكرام عليهم السلام من خلال الندوات والمؤتمرات لأن من

أهـم أهدافها هو جعل العتبة المقدسـة منـارا حضاريا فكريا تربويا فضلا عن كونها مكانا مقدسا للدعاء والعبادة.. وذلك من خلال اسـتقطاب المفكرين وأصحاب الأقلام لرفد المكتبة الإسـلامية بالبحوث والدراسـات المتنوعة بعنوان رد ا لجميل للنـبي الأعظـم وأهـل بيته الكـرام عليهم السلام وعرفانا منـا لهم بما قدموه خلال حياتهم ا لجهادية التي تكتنز بالدروس والعبر .

فالبحـث الذي بـين يديك هو مشـاركة طيبـة من سماحة السـيد محمد صادق السـيد محمد رضا الخرسان في الندوة العلمية التي أقامتها العتبة الكاظمية المقدسـة تحت شـعار «محمد رسول الله صلى الله عليه وآله رحمة مهداة للإنسانية جمعاء» حيث اشتمل بحثه على ثلاثة فصول، الأول: بيّن فيه مفهوم التنمية وجذورهـا وتدرّج في بيـان معانيها لدى الأمـم وتطورها، كما بيّن مفهومها في الإسـلام على أن التنمية البشـرية للإنسان وبالإنسـان، لامتلاكه قدرات متجـددة ومعارف متغيرة يمكن توظيفهـا جميعـا في المشـروع الإنمائـي، مع ضرورة ترسـيخ مفهـوم المحبـة والتآلـف ومـكارم الأخـلاق ليأخـذ العمـل ا لجماعـي دوره بصـورة متوائمة ومتناغمـة من خلال تكاتف الأفراد داخل المجتمع.

أمـا الفصل الثانـي فقد أوضح سماحته التنمية البشـرية في المفهومـين القرآنـي والنبـوي وأن مـن أهـداف بعثة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله هي برفع قيمة الإنسـان وا لمجتمع، وتطوير قابلياتهما وتنمية قدراتهما، إذ أنه صلى الله عليه وآله أُرسِل للناس ليعلمهم

الكتاب والحكمة ولينتقل بهم من الواقع المتدني إلى مدارج الكمال الإنساني.

وفي الفصل الثالث تم تسليط الضوء على مفهوم التراحم، تلك الصفة التي تودع لدى المتحلين بها شعورا بالسكينة والطمأنينة والمودة والوئام، مما يدفع بالمجتمع إلى الإبداع والتطور والرقي، بعكس العنف والكراهية التي تبدد كيان أكثر المجتمعات قوة وتحطم أواصر العلاقات مهما كانت متينة، وبالتالي سيبتعد عن طاعة الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، وعليه يجب أن نضع نُصب أعيننا قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

نسأل المولى العلي القدير أن يوفقنا وإياكم لمراضيه، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، وأن نكون من السائرين على نهج النبي محمد وآله الكرام عليهم السلام إنه سميع مجيب.

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

قسم الثقافة والإعلام

الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٣٤ هـ

مقدمة الباحث

الحمد لله ربِّ العالمين كما يرضى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وآله النجبا..

وبعد.. فما زالت توجد فضاءات معرفية واسعة، تستدعي التأمل والبحث في آفاقها، الغنية بالعطاء النقي، وما زال الجهد العلمي فيها جاذباً لجهود متتالية نافعة.

ومن بينها كان البحث عن أدوار المعصومين عليهم السلام في معالجة قضايا حياتية ضاغطة، وما قدموه من رؤى رصينة، تثري الباحث والمتلقي، لأنها الأطروحة المتكاملة لمنهج حياتي، يستوعب الإشكالية، ويعرض حلولها، بما يصلح لمختلف الأزمنة والأمكنة والمجتمعات.

و«محمد رسول الله صلى الله عليه وآله رحمة مهداة للإنسانية جمعاء»[1]، من أبرز ما يستوقف الباحث والمتلقي، لغزارة مضمونه ودلالاته، بعد سبق الوصف القرآني، بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

مما يجعله حقيقة لا اختلاف عليها، لكن كيف تتم مقاربتها بالفكر، وما دور الأمة في تأكيدها والتعريف ببعض

(١) - وهو شعار الندوة العلمية.

(٢) - سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

ملامحها في الواقع؟ ليتم تفعيلها والإفادة منها.

إنَّ تلبيتي لدعوة الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة، مشاركةٌ في هذا الإطار، أتوخى فيها الدقة العلمية، كما آمل منها تحقيق المبتغى في التعريف بدور الرسول الأعظم ﷺ في تأصيل التنمية البشرية، كواحدة من أهم سبل الخروج من الأزمات المجتمعية، وما وفره لنا من إضاءات حديثية، نقتبس منها في عتمة الطريق، علّها تفسح لنا السبيل، فنرد المعالم واضحةً، ونستلهم مزيداً مما يقوّم المسيرة، ويتيح فرصة أفضل للنهوض بالمسؤولية في التكامل، وتوظيف الطاقات لإصلاح النفس والارتقاء بالمجتمع.

وينعقد البحث انطلاقاً من قوله ﷺ: «ما ضاق مجلسٌ بمتحابين»[1]، ليستجلي أهمية استقرار العلاقة مع الآخر، وأنها ذات مردود ايجابي، لمواجهة التحديات، وأنَّ من بين بواعث الاستقرار، إشاعة مفهوم التراحم، والتثقيف عليه، ليأخذ مساحته المناسبة في المجتمع، ويعتمد كإطار عام تشترك فيه مكونات المجتمع المختلفة، ويترسخ في الذهنية الفردية، فيكون من أولويات الجميع، أنَّ ضيق المساحة المكانية، لا يعيق الجلساء عن احتواء الآخر، والعمل على المشتركات، وتوحيد الخطاب انطلاقاً من صدق المحبة وعمق المشاعر، فيُتغلب على الطوارئ.

(١) الجامع الصغير - جلال الدين السيوطي٢ /٤٩٨، كنز العمال - المتقي الهندي٩/٩، برقم ٢٤٦٧، تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي ٣ /٤٤٥.

وإنَّ التراحم بما يمثله من تعاطف قلبي، لما يغطي مساحة واسعة، لن تستوعبها بدائل كثيرة، إذ يتلافى ما يحسه اليتيم، وما يفتقده المحروم، كما لا يستغني عنه غيرهما من مكونات المجتمع، فهو خير جامع للشتات، وموحدٍ للجماعات، لأنه إنْ كان في جوٍ جاذب، فسيؤدي دوره في التلاحم، وإلا فسينشئ المحبة والمودة بين الأفراد، وهذا ما لا تنهض بأدائه الأموال أو القوة أو إرادات أخرى، بل فرضه واقع ما أشار اليه ﷺ بقوله: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ...»[1]، مما يعتبر ورقة عمل للمسلمين في علاقاتهم، ليتجاوزوا الخلافات الناتجة عن تعددية الفكر والرؤى، مع أنها اختلافات في الآراء وأساليب المعالجات، لا تعني مروقاً عن الدين، ولا خروجاً عن أخلاقيات التعامل مع الآخر، بقدر ما هي مؤشر لوجود أكثر من لون واتجاه مجتمعي، وهو أمرٌ طبيعي، لا يستحق أنْ ينعكس سلباً على تحقيق التطلعات في الانفتاح على الآخر ومعه، من أجل بناء المجتمع، والعمل على تماسكه وألفته.

فأضحى لزاماً إيجاد جوٍّ نقي صالح لتنشئة الجيل، يعالج تلك السلبيات ويتلافاها، ويهذب النفوس ويقيمها على النهج الصحيح، استثماراً لقدرات الكفاءات، واستقطاباً للطاقات وتوجيهاً لها نحو ما يرفع المستوى وينمّيه، تحقيقاً لما أراده نبينا ﷺ من علاقات صالحة تسود المجتمع، وتيّسر

(١) مسند أحمد ٢ /٩١، ونحوه في عوالي اللئالي - الأحسائي ١ -/١٢٨.

«فن النجاح» للفرد، وتؤصل «لتنمية بشرية مستدامة» تشمل قطاعات واسعة، لا تتحدد بمساحة الزمان أو المكان، بل تهتم بالإنسان لأنه إنسان له اعتباره الكامل، الذي يستحق المحبة والمودة والتراحم والتلاحم، لينطلق منها في تعامله مع الآخر، فيتشاطرا المسؤولية ويتعاونا على أداء الرسالة للأجيال المتلاحقة بأمانة، ويبتعدا عن الوسواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس بما يفرِّق الكلمة، ويثير مشاعر الكراهية والتمييز في النفوس، فيصد عن التآلف والتكاتف، مع أنّ بالوفاقيات سعةً واستغناءً عن الركون الى الخلافيات، بل وما به الاشتراك أكثر مما فيه الافتراق، ولذلك يلزم الاحتكام اليه ﷺ والعمل بما أراده من المشاركة في بناء مجتمع صالح، من كل حسب طاقته.

ولما كانت موضوعة التنمية البشرية من الموضوعات المعاصرة، التي حازت اهتماما كثيرا، فلا بد من بيان دور نبينا الأعظم ﷺ في ذلك، وتركيز القول على مفردة التراحم كأنموذج لذلك، فيتأكد أنْ لا حلول إلا عند الرسول، حيث ائتمنه الله تعالى على الأمة، فجعله شاهدها وشهيدها، وكانت له مواقفه التي رشّد بها أفكار الأمة ومتبنياتها، ليتبلور الصحيح من بين الركام، وتُتلافى الأخطاء وتُتدارك تبعاتها، ولا بد من الرجوع إليه.

وفي ختام هذه المقدمة أدعوه تعالى أنْ يوفق الأعزاء في

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة وسائر المعنيين من منتسبيها، ويبارك في جهودهم، شاكراً لهم إتاحة الفرصة، في تسليط الضوء على ما يجسد أنه ﷺ الرحمة المهداة لِلْعَالَمِينَ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

النجف الأشرف

محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان

١٤٣٤/٢/٢٤هـ - ٢٠١٣/١/٧م

تمهيد

التنمية لغةً: وزان التفعلة[١]، وهي من مشتقات مادة «النون والميم والحرف المعتل، أصل واحد يدل على ارتفاع وزيادة، ونمى المال ينمى: زاد...»[٢]، «ونميت النار تنمية ألقيت عليها شيوعها»[٣]، «وهو ما دقَّ من الحطب»[٤]، أو «رَفَعَها وأَشْبَعَ وَقُودَها، وذلكَ بأَنْ أَلْقَى عليها حَطَباً فذَكَّاها به... وهو مجازٌ»[٥].

والتنمية اصطلاحاً تختلف باختلاف متعلقها، فالتنمية البشرية «هي: عملية توسيع اختيارات الشعوب، و... أن يتمتع الإنسان بمستوى مرتفع من الدخل وبحياة طويلة وصحية، بجانب تنمية القدرات الإنسانية من خلال توفير

(١) - «... قاعِدَةُ التَّفْعلة من كلِّ فعْلٍ على فعل مُعْتَل اللام مُضَعّفاً كزَكَّى تَزْكِيةً ورَوَّى تَرْوِيةً، وما لا يُحْصَرُ» تاج العروس، الزبيدي١٩/٦٠٧، إذ(لا بُدَّ لكلِ فعْلٍ غَيْرِ ثلاثي من مصدر مَقِيس، فقياسُ فَعَّلَ- بالتشديد- إذا كان صحيح اللام التَّفْعِيلُ كالتَّسْليم...، ومُعْتَلُّها كذلك ولكن تحَذْف ياءِ التفعيل وتُعَوَّضُ منها التاء، فيصير وزنه تَفْعِلَة كالتَّوْصِيَةِ والتَّسْمِيةِ والتَّزْكِيَةِ» أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري١٧٨.

(٢) - مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٤٧٩.

(٣) - أساس البلاغة، الزمخشري ٩٩٣.

(٤) - المخصص، ابن سيده، ج٣ ق٢ ص٣٠.

(٥) - تاج العروس، الزبيدي ٢٠/٢٦٤، ونحوه «ونميت النار تنمية، إذا ألقيت عليها حطبا وذكيتها به ».الصحاح ٦/٢٥١٦.

فرص ملائمة للتعليم»[١]،

أو: «توسيع لحريات البشر وإمكاناتهم، فيعيشون الحياة التي يختارونها وينشدونها،... يتجاوز حدود الاحتياجات الأساسية الى الكثير من الغايات الأخرى الضرورية لعيش حياة لائقة»[٢].

فهي عملية تطوير الكفاءات البشرية وتحسين أدائها، بصورة شاملة، في مختلف الميادين الحياتية، مما يشارك كمدخل لحصول عمليات تغيير نوعي في المجتمع، مع المحافظة على أصوله، والمساهمة في الانسجام بين الأفراد، بما لا يتعارض وثوابت الإنسان النوعية، فكانت التنمية البشرية: مقاربة تصحيحية متتالية على مدى الزمان ومختلف المكان، وصولاً للأفضل.

التراحم لغةً: وزان التفاعل الدال على التشارك في الفاعلية والمفعولية، وهو مشتق من «الراء والحاء والميم: أصل واحد: يدل على الرقة والعطف والرأفة... رحمه يرحمه إذا رقَّ له وتعطف عليه»[٣]، «وترحمت عليه واسترحمته استعطفته،

(١) - الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، تنمية بشرية.

(٢) -تقرير التنمية البشرية ٢٠١١، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ص١.

(٣) - مقاييس اللغة ٤٩٨/٢.

وتراحموا تعاطفوا»[١].

فهو كصيغة تدل على توحد الثنائي عملياً، لأداء حالة مطلوبة، ضمن السياق العام للمجتمع، بحيث لا يؤديها فعل أحاديٌّ، إذ لابد من تعدده، ليتم المطلوب.

واصطلاحاً: التعاطف بين أفراد المجتمع، بالتواصل - مادياً ومعرفياً - والتزاور والتلاقي والتذاكر وسائر ما يحقق الانسجام العام، والتغلب على الكثرة المفرقة، بتقارب نفسي، ذي فاعلية على طي المسافة، كما يدل عليه ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً «لأَصْحَابِه: اتَّقُوا اللّه وكُونُوا إِخْوَةً بَرَرَةً، مُتَحَابِّينَ فِي اللّه، مُتَوَاصِلِينَ مُتَرَاحِمِينَ، تَزَاوَرُوا وتَلَاقَوْا وتَذَاكَرُوا أَمْرَنَا وأَحْيُوه»[٢]، فأنَّ ما عدّده بعد صفة التراحم، من تطبيقاتها ومظاهرها الفعلية.

(١) - أساس البلاغة٣٢٩.

(٢) - الكافي، الشيخ الكليني ١٧٥/٢ باب التَّرَاحُمِ والتَّعَاطُفِ، ح١.

الفصل الأول

التنمية في نشأتها وامتدادها التأريخي كنظرية وممارسة

كانت «التنمية... في جذورها الأولى منذ المحاولات المبكرة التي قام بها الإنسان الأول لمعرفة التغيّرات التي تجري من حوله، وقد ارتبط ذلك بالمشاهد الحية والتأمل في التغيّرات التي تحدث في الموجودات كفصول السنة والنبات والإنسان والحيوان، حيث أوضحت تلك التغيّرات أن هذا الكون في حركة مستمرة وفي تغير دائم، وقد أدت هذه المشاهدات والتأملات إلى بروز جدل فلسفي متواصل حول ماهية الأشياء، وطبيعة المتغيرات التي تحدث فيها،... [و]كان فلاسفة اليونان... سباقين إلى إثارة هذا الجدل في تاريخ الفكر الأوروبي، ومن بين هؤلاء الفلاسفة كان هرقليطس، الذي اهتم في جانب كبير من فلسفته بقضايا التغيّر، مشيرًا إلى أن هذا الكون في حركة وتغير دائمين، وقد عرفت عنه مقولته الشهيرة «إنك لا تستطيع أن تنزل في نفس النهر مرتين»، وهو بهذا يقرر أن كل شيء في هذا الكون في حركة مستمرة وتغير، وأن كل شيء مؤلف من متضادات «متقابلات»، ولهذا فإنه خاضع للتوتر الداخلي، أي للصراع.

وهرقليطس في هذا، يرفض أطروحة الفيلسوف اليوناني بارمنيدس القائلة بأن شيئًا قد يكون، ولا مجال للتغير، كما

يتعارض مع فلسفة أفلاطون في اعتباره التغيّر أمراً ظاهرياً، وأن الحقيقة لا يمكن معرفتها إلا من خلال الشكل أو الفكرة، وهما غير قابلين للتغيير لأن بهما وحدهما نستطيع أن نميز الجيد والحقيقي من غيره.

أما أرسطو فقد ناقش موضوع التغيّر من جانب آخر، فأشار في معرض دراسته لطبيعة الدولة في كتاب السياسة بوجود نظام في الكائن العضوي يمكنه من الانتقال من مرحلة إلى أخرى، يبدأ بالولادة، فالنضج، وأخيرا الاضمحلال، وكل مرحلة من مراحل النمو هذه تختزن في باطنها حافز نشوء المرحلة التي تليها.

[و] عند العرب، في القرن الرابع عشر الميلادي، برز المفكر وعالم الاجتماع العربي عبد الرحمن بن خلدون ليعطي مفهوم التغيير الاجتماعي بُعداً أكثر شمولية وعمقاً، مؤكداً أنَّ الظواهر الاجتماعية لا تنشأ من فراغ، فلكي نفهم الظاهرة الاجتماعية يجب أن نعي البيئة التي نشأت فيها، ولذلك عزا ابن خلدون سلوك الناس وطريقة حياتهم إلى نوعية الوظائف التي يشغلونها في المجتمع، والتي تلبي حاجاتهم الأساسية، فتلك الوظائف وتلك الحاجات هي مبعث التحالفات وأوجه التعاون بين فئات المجتمع.

وقد أوضح ابن خلدون ذلك بدقة قائلاً: «واعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه... قبل الحاجي والكمالي... وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلْغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك، ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة»[1]...

[و] لم يحدث بعد رحيل ابن خلدون حتى البدايات الأولى لعصر النهضة... في أوروبا أي تطور علمي يذكر فيما يتعلق بمفهوم التنمية والتغيّر الاجتماعي، إلا أنَّ التطورات والثورات الفكرية والدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية اللاحقة، والتي ارتبطت بذلك العصر، قد أدت إلى حدوث تغيّرات جذرية وتطورات واسعة في مجال العلوم الإنسانية ومفاهيم التغيّر الاجتماعي، ومن خلال الجدل الفلسفي الذي بلغ ذروته في القرن الثامن عشر، انبثقت نظريات التطور والتنمية والتقدم، وبرزت فلسفات حديثة شاملة للكون والحياة، ولأن نظريات التنمية والتطور الحديثة

(١) - مقدمة ابن خلدون ١/١٢٠.

التي تسود عالمنا اليوم قد ارتبطت، إلى حد كبير، بالنظريات والتصورات التي انبثقت عن تلك المرحلة، فإنَّ من المهم المرور على أبرز الحوادث والتطورات والأفكار التي ارتبطت بعصر النهضة والتي أدت نتائجها إلى تجذر مفهوم التغيّر الاجتماعي وتصحيحه، وعلى الرغم من أن أحداً لا يستطيع أن يحدد بالدقة نهاية عصور الظلمة أو بداية عصر الانبعاث في أوروبا، إلا أنه يمكن القول إنه بفعل إشعاعات الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، والنتائج التي توصل إليها العلماء والفلاسفة العرب، فإن أوروبا مع بداية القرن الثالث عشر الميلادي كانت تتململ ببطء في محاولة للاستيقاظ من سبات عميق، فقد سجلت كتب التاريخ أن الإمبراطور فريدريك الثاني قد أقام سوقًا للأدب والعلم والفلسفة في بلاطه في جزيرة صقلية، وأنه كان يدعو إلى هذه السوق المشاهير من الفلاسفة العرب، وقد أسس مدرستين إحداهما للعلوم في نابولي، والثانية للطب في ساليرنو، ثم انبثق عن هاتين المدرستين جامعة في باريس جعلت من هذه المدينة قبلة طلاب العلم في أوروبا، ومن ثم انشق بعض الطلاب الإنجليز عن هذه الجامعة فعادوا إلى بلادهم وأنشأوا جامعة خاصة بهم هي جامعة أكسفورد الشهيرة، [و] في القرن الثالث عشر شهدت أوروبا تطوراً ملحوظًا في مجال الأدب والفلسفة، فقد برز الفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون الذي أنكر العقيدة القائلة بأن الأشياء وجدت كما هي قائمة،

موضحاً أن للظواهر الطبيعية أسبابًا يجب التفتيش عنها، فاتهم بالزندقة واضطهدته السلطات الكنسية، وعلى صعيد الانطلاق الأدبي شهد القرن نفسه نشر دانتي ملحمته الشهيرة الكوميديا الإلهية، [و] أما على الصعيد السياسي، فقد شهدت إنجلترا ثورة على النظام الإقطاعي، ووقّع الملك يوحنا في ١٢١٥م على الوثيقة العظمى التي ضمنت بعض الحقوق السياسية، وفي نفس العام تم تشكيل مجلس ليشرف على الخزينة الملكية، فكان ذلك فاتحة عهد في بروز الأنظمة الدستورية البرلمانية في أوروبا»[١].

فكان «مفهوم التنمية من أهم المفاهيم العالمية في القرن العشرين، حيث أُطلق على عملية تأسيس نظم اقتصادية وسياسية متماسكة فيما يُسمى بـ «عملية التنمية»، ويشير المفهوم لهذا التحوّل بعد الاستقلال- في الستينيات من هذا القرن- في آسيا وإفريقيا بصورة جلية.

وتبرز أهمية مفهوم التنمية في تعدد أبعاده ومستوياته، وتشابكه مع العديد[٢] من المفاهيم الأخرى مثل التخطيط والإنتاج والتقدم.

---

(١) - الموسوعة العربية العالمية، مادة:التنمية، نسخة قرص المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

(٢) - كذا، والصواب بعدة.

وقد برز مفهوم التنمية Development بصورة أساسية منذ الحرب العالمية الثانية، حيث لم يُستعمل هذا المفهوم منذ ظهوره في عصر الاقتصادي البريطاني البارز آدم سميث في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية، إلا على سبيل الاستثناء، فالمصطلحان اللذان استُخدما للدلالة على حدوث التطور المشار إليه في المجتمع كانا التقدم المادي Material Progress، أو التقدم الاقتصادي Economic Progress، وحتى عندما ثارت مسألة تطوير بعض اقتصاديات أوروبا الشرقية في القرن التاسع عشر كانت الاصطلاحات المستخدمة هي التحديث Modernization، أو التصنيع Industrialization.

وقد برز مفهوم التنمية Development بداية في علم الاقتصاد حيث استُخدم للدلالة على عملية إحداث مجموعة من التغيّرات الجذرية في مجتمع معين، بهدف إكساب ذلك المجتمع القدرة على التطور الذاتي المستمر بمعدل يضمن التحسن المتزايد في نوعية الحياة لكل أفراده، بمعنى زيادة قدرة المجتمع على الاستجابة للحاجات الأساسية والحاجات المتزايدة لأعضائه، بالصورة التي تكفل زيادة درجات إشباع تلك الحاجات، عن طريق الترشيد المستمر لاستغلال الموارد الاقتصادية المتاحة، وحُسن توزيع عائد ذلك الاستغلال.

ثم انتقل مفهوم التنمية إلى حقل السياسة منذ ستينيات القرن العشرين، حيث ظهر كحقل منفرد يهتم بتطوير البلدان غير الأوربية تجاه الديمقراطية، وتُعرّف التنمية السياسية: بأنها عملية تغيير اجتماعي متعدد الجوانب، غايته الوصول إلى مستوى الدول الصناعية، ويقصد بمستوى الدولة الصناعية إيجاد نظم تعددية على شاكلة النظم الأوربية تحقق النمو الاقتصادي والمشاركة الانتخابية والمنافسة السياسية، وترسخ مفاهيم الوطنية والسيادة والولاء للدولة القومية، ولاحقاً تطور مفهوم التنمية ليرتبط بالعديد[١] من الحقول المعرفية، فأصبح هناك التنمية الثقافية التي تسعى لرفع مستوى الثقافة في المجتمع وترقية الإنسان، وكذلك التنمية الاجتماعية التي تهدف إلى تطوير التفاعلات المجتمعية بين أطراف المجتمع: الفرد، الجماعة، المؤسسات الاجتماعية المختلفة، المنظمات الأهلية، بالإضافة لذلك استحدث مفهوم التنمية البشرية الذي يهتم بدعم قدرات الفرد وقياس مستوى معيشته وتحسين أوضاعه في المجتمع»[٢].

وقد تطور مفهوم التنمية البشرية ليشمل مجالات متعددة منها : التنمية الإدارية والسياسية والثقافية، ويكون

(١) - كذا، والصواب بعدة.

(٢) - مفهوم التنمية، د.نصر عارف- كلية العلوم السياسية-جامعة القاهرة

الإنسان هو القاسم المشترك في جميع المجالات السابقة، ولهذا فتطور الأبنية: الإدارية والسياسية والثقافية له مردود على عملية التنمية الفردية من حيث تطوير انماط المهارات والقيم والمشاركة الفعالة للإنسان في عملية التنمية إلى جانب الانتفاع بها، وعلى هذا يمثل منهج التنمية البشرية الركيزة الاساسية التي يعتمد عليها المخططون وصانعو القرار لتهيئة الظروف الملائمة لإحداث التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وبعد كل هذا يمكن إجمال القول أن التنمية البشرية هو المنهج الذي يهتم بتحسين نوعية الموارد البشرية في المجتمع وتحسين النوعية البشرية نفسها.

ولكن مفهوم التنمية في الإسلام، قد تقدم على أولئك في إطروحته، من حيث تأكيده على أنَّ التنمية البشرية للإنسان وبالإنسان، لنفسه الفاعلة، ومعارفه المتغيرة، وقدراته المتجددة، بعدما كانت التنمية محفزة على الجد والمثابرة والكمال والإتقان وسائر حالات الإنماء، الشاملة والمتكاملة والمرتبطة بحركة المجتمع تأثراً وتأثيراً، وبالتالي فهو ليس بجديد عليه، ولو لم يرد كمصطلح فيه، ومازال على اشتقاقه اللغوي، لكنه سبق غيره -لاسيما على مستوى الفكر، لاالفرد-، إذ جعل ركيزة ما ينطلق منه هذا المشروع التنموي، هو رسوخ مفهوم المحبة والأخلاق الحسنة، وأنه يؤسس للعمل التكاملي مع الآخر، ويجمع الأخلاق والاقتصاد وسواهما

من الموارد المتوافرة من أجل الإنسان، فهي ببُعديها المعنوي والمادي، قد وفّرت للإنسان فرصة التنمية المستدامة، لا من خلال تطوير الأرض والمدن والأعمال التجارية فحسب[١]، بل من خلال تقوية مختلف مجالات المجتمع، لتكون نواة الاستثمار الأمثل للطاقات والإمكانات، بينما تُختصر التنمية في غير الإسلام بزيادة دخل الفرد بما يتناسب مع النمو السكاني، وهو ما لم يعالج مشكلة المجتمع بكامله، بل اهتم بالفرد، على أساس أنَّ «التنمية البشرية مبنية في المقام الأول... على السماح للناس بأن يعيشوا نوع الحياة الذي يختارونه، وعلى تزويدهم بالأدوات المناسبة والفرص المؤاتية لتقرير تلك الخيارات، وفي السنوات الأخيرة سعى تقرير التنمية البشرية بقوة إلى إثبات أن هذه المسألة هي مسألة سياسة بقدر ما هي مسألة اقتصاد، من حماية حقوق الإنسان إلى تعميق الديمقراطية»[٢].

وهذا ما يمثّل إفراطاً في منح الحرية أو استخدامها، حيث يفترض استواء الأفراد في قابلياتهم لاختيار نوع الحياة، مع أنهم ليسوا على شاكلة واحدة، ولم يغنهم بشيء تزويدهم

---

(١) - كما حدد مفهومها ما ورد في موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة:تنمية مستدامة.

(٢) - موقع الأمم المتحدة، تقارير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية.

بالأدوات والفرص لتقرير ذلك، إذ يُسهم بوضوح في تأميم الخيارات جميعاً لصالح فئة أو فرد، كما أكده التقرير في النص المتقدم، فلم يكن الاختيار خالياً عن حسابات معينة، تؤثر على حق الناس المكفول، بعد عدم افتراض عصمة القائم عنهم بذلك.

ومن هنا كانت خيارات الإسلام في التنمية البشرية، أكثر تلاؤماً مع واقع إنسانية الفرد، بما يعبأ فيه روح المسؤولية، وينشطه للمطالبة بحقوقه المشروعة في الحياة، إذ كما قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية، كانوا على ما كرهته من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية، كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي»[1]، بما يقرر واحدةً من سننه عز وجل الكونية، من أنَّ التغيير مرتبط بإرادة العبد الجازمة للتغيير، فيكون قد تفاعل عقلياً وجسدياً مع الحدث، وبدأ خطوات الإصلاح والتطوير، لتتشكل بذلك إرادة مجتمعية عظمى، وتكون نهضة عامة، تستنفر الطاقات، وتستثمر الجهود،

(١) - الدر المنثور، السيوطي ٤٨/٤.

فتحصل التنمية المنشودة، وإلا كان التغيير أحادياً، إذ يعتمد تصوراً فردياً، قد يصيب كما يخطئ، ومعه فلا يتم التفاعل الثنائي سواءً على مستوى التنمية عامةً، أم التراحم خاصةً باعتباره خطوة جادة في طريق التطور والنجاح.

ومما يشهد بسبق التنظير إسلامياً للتنمية، تأكيده على إشاعتها في عدة مجالات، فقال تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (١)

وهو توجيه بضرورة ترشيد الاستهلاك والإنفاق وعدم مجاوزة الحد الطبيعي في النفقة، ليصل الفرد الى مستوى أفضل، ويتجاوز بعض ضوائقه المالية، ولم يقتصر على ذلك بل أرشد الى الإفادة من رؤوس الأموال وتدويرها تجارياً، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (٢).

حاثاً بذلك على استهلاك المال والاستفادة منه واستثماره بما يعود نفعه على الجميع، كما هو واقع التجارة، إذ تؤدي الى الاستعانة بأكثر من يد عاملة، وتحقق مكسباً لأكثر من

(١) - سورة الأعراف، من الآية ٣١.

(٢) - سورة النساء، من الآية ٢٩.

عائلة وجهة، فتُحدث بدورها ترددات إنفاقية تعمل على تحريك السوق محلياً بل إقليمياً بل دولياً، مما يمتص كثيراً من مظاهر البطالة أو سائر الأزمات الأخرى، ولذلك أهتم رسول الله ﷺ بها وحثَّ عليها بقوله: «تسعة أعشار الرزق في التجارة...»[1]، بما يبين أهمية ترشيد طرق استغلال الثروات وعدم الاقتصار على حالات محدودة، بل تطويرها ضمن الضوابط، الأمر الذي يحقق تنمية اقتصادية مهمة، تستتبعها تنمية بدنية، حيث ينشط المتاجر ويكدح، فيبتعد بسبب ذلك عن الخمول والكسل وسفاسف الأمور والفضول في شؤون غيره، ولا يجد وقتاً للتفكير بأذى أو سلبية لأحد، وغيرها من دوال التطوير والتغيير الإيجابي، ومنه التنمية الزراعية، والتي هي من بعض ما أنعم الله تعالى بها على عباده وحثهم على الأخذ منها وبها، ليندفعوا في مجالات العطاء والرخاء، ويجروا في طرق الأرض ويبحثوا بأنفسهم عن الرزق الحلال، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾[2].

---

(١) - الخصال، الشيخ الصدوق ٤٤٦ ح٤٥، الجامع الصغير، السيوطي ٥٠٦/١ رقم٣٢٩٦.

(٢) - سورة الأعراف، الآية ١٠.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۞ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (١).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٣).

---

(١) - ىسورة الحجر، الآيات ١٩-٢٢.

(٢) - سورة النمل الآيتان ٦٠-٦١.

(٣) - سورة البقرة، الآية٢٦٧.

وغيرها من الآيات المباركة التي تهئ للتنمية الاجتماعية والتطوير النوعي والتغيير في المجتمع له ومن أجله، قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (١).

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢).

بما يبعث على التلاحم وتقوية الأواصر وتكثير الروابط، مما يُرجى منه الخير للجميع، وتترشح عنه تنمية سياسية، تحقق تطويراً كبيراً لِبُنى المجتمع، فضلاً عن الفرد، فيستشعر الجميع المسؤولية في تدبير الأمور العامة ومتابعتها بما ينسجم مع المصالح العامة المشتركة، الأمر الذي يوفر استقراراً نوعياً أمنياً واقتصادياً ومجتمعياً عاماً، بما يبرز دور الاحتكام الى ذوي التجربة والحكمة، ويبين أهمية التشاور، حيث لا يستقيم أمر بالفوضى والاستبداد، قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

(١) - سورة المائدة، الآية٢.

(٢) - سورة الحشر، الآية ٩.

﴿فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١).

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢).

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٣).

تأكيداً على ضرورة التحاور واشتراك الجميع في اتخاذ المواقف المهمة، وعدم التعجل في حسمها، لما لتدارس الرأي وإدارته بين أكثر من طرف أو جهة من أثر كبير في بلورة الأفضل، وهذا ما يجب اتباعه، تفعيلاً للتنمية وترسيخاً لمفهوم التطوير القائم على إشاعة روح التعاون والتكاتف في الإنسان.

(١) - سورة النساء، الآية ٦٥.

(٢) - سورة آل عمران، من الآية ١٥٩.

(٣) - سورة الشورى، من الآية ٣٨.

الفصل الثاني

التنمية البشرية في المفهومين القرآني والنبوي

قال تعالى واصفاً القرآن الكريم:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢).

مما يؤصّل حقيقة كاشفية القرآن الكريم عن الأشياء، وأنه كتاب هداية ورحمة، إذ يدعو الى الصلاح والفلاح في النشأتين، حيث يعمّق مفاهيم الطاعة والتقوى والعمل الصالح والسلوك الحسِن مع الجميع والدفع بالأحسن وسواها من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، وهو مع ذلك كله بشرى للعاملين به، فقد تكفل لهم بتحديد طريق النجاة، وسهل عليهم سلوكه، وسواها من صفات القرآن الكريم، بما يبعث نحو استجلاء حقائقه والإفادة منها، لتُعين على مواكبة الحياة، بما يضيف زخماً معنوياً داعماً لمواصلة المسيرة، واستنماء المعلومة، وإنْ تطلّب ذلك مواصلةً

---

(١) - سورة النحل، من الآية ٨٩.

(٢) - سورة الأنعام، من الآية٣٨.

ومثابـرةً في البحـث عما أودعه تعالى في كتابـه العزيز، الذي اؤتمـن عليه «أَحَـبَّ أَنْبِيَائِه إِلَيْـه، وأَكْرَمَهُمْ عَلَيْـه، مُحَمَّدَ بْنَ عَبْـدِ اللَّه... اصْطَفَـاه اللَّه، وارْتَضَاه، واجْتَبَاه، وآتَـاه مِنَ الْعِلْم مَفَاتِيحَه، ومِـنَ الْحُكَم يَنَابِيعَه، ابْتَعَثَه رَحْمَـةً لِلْعِبَادِ، ورَبِيعاً لِلْبِلَادِ...»[1]، «ابْتَعَثَه بِالنُّورِ الْمُضِيءِ والْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، والْمِنْهَاجِ الْبَـادِي والْكِتَـابِ الْهَادِي»[2]، «... ابْتَعَثَه والنَّـاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، ويَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، واسْـتَغْلَقَتْ عَلَـى أَفْئِدَتِهِـمْ أَقْفَالُ الرَّيْـنِ...»[3]، فكان الوصـول الى الكنز مشروطاً باتباع الأمين عليه ﷺ الموصوف بقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[4].

إذ لا بد من الاسترشاد به ودلالته، وعدم الاستغناء اغتراراً ببعض ما يُحرز من العلوم، بل مهما تكامل الإنسان، فلا غنى له عن الإفادة من عطاء رسول الله ﷺ، لكونه المعلّم

---

(١) الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٤٤٤ ح-١٧ عن مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ غَالِبٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام فِي خُطْبَةٍ لَه خَاصَّةً يَذْكُرُ فِيهَا حَالَ النَّبِيِّ والأَئِمَّةِ ع وصِفَاتِهِمْ.

(٢) - نهج البلاغة (تحقيق صالح)٢٢٩.

(٣) - المصدر نفسه ٢٣٨.

(٤) - سورة الأحزاب، الآيتان ٤٥-٤٦.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١).

ما يمثِّل حالة فريدة، لجمعه بين التزكية والتعليم، بما يعنيانه من اقتران العلم والعمل، وهما عصبان حيويان، يتوزعان شؤون الحياة، ومن دون أحدهما يتحول الفرد الى آلة مستجيبة، فكان دور الرسول الأعظم ﷺ في التطوير والتغيير، بأنْ دعا الى تفعيل إرادة الإنسان في صنع الحياة، ومشاركته الفاعلة في اختطاط طريقه ورسم ملامحه العامة، وهو ما يقوي لديه المناعة من اختراق أحدٍ إياه، ويهيء له وسائلِ الدفاع الواقية لو تعرض لذلك، فقال ﷺ: «لا تُسخطوا الله برضا أحدٍ من خلقه، ولا تتقربوا إلى أحدٍ من الخلق بتباعدٍ من الله عز وجل، فإنَّ الله ليس بينه وبين أحدٍ من الخلق شيءٌ يعطيه به خيراً أو يصرف به عنه سوءاً إلا بطاعته وابتغاء مرضاته، إنَّ طاعةَ اللهِ نجاحُ كلِّ خيرٍ يُبتغى، ونجاةٌ من كلِّ شرٍّ يُتقى، وأنَّ الله يعصم مَنْ أطاعه ولا يعتصم منه مَنْ عصاه، ولا يجد الهارب من الله مهرباً، فإنَّ أمرَ اللهِ نازلٌ بإذلاله ولو كره الخلائق، وكل ما هو آت قريب، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، تعاونوا على البر

(١) - سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب»[١]، وقوله ﷺ: «... إنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»[٢]، وغيرها من دعواتٍ للاستقامة واتّباع الحكمة وعدم التورط بالمخالفة، لما تسببه من سوءٍ لا يُتدارك.

وأنَّ العاقل مدعوٌ للاستجابة، بعدما كان التحذير من المعصية والمخالفة، ولو للخوف من عقوبة يوم لا يجد الهارب من الله مهرباً، بما يُلزم عقلاً بدفع ذلك الضرر-ولو كان محتملاً غير متيقن- وعليه العمل بالطاعة، إنجاءً لنفسه وحفظاً لها من النار، وهذا ما يستلزم تعريفاً إلهياً لعباده، فأرسل الرسل وبعث الأنبياء «أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّه واتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَه، واجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِه، واقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَه، ووَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَه لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه، ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، ويَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، ويُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ، مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، ومِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، ومَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وآجَالٍ تُفْنِيهِمْ وأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ، ولَمْ يُخْلِ اللَّه سُبْحَانَه خَلْقَه مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لَا

(١) - أمالي الشيخ الصدوق ٥٧٧، رقم ١/٧٨٨.

(٢) - شُعب الإيمان، البيهقي ٢٩٩/٧ رقم ١٠٣٧٦.

تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، ولَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَه مَنْ بَعْدَه، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَه مَنْ قَبْلَه، عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ ومَضَتِ الدُّهُورُ، وسَلَفَتِ الآبَاءُ وخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللّٰه سُبْحَانَه مُحَمَّداً رَسُولَ اللّٰه ﷺ، لإِنْجَازِ عِدَتِه وإِتْمَامِ نُبُوَّتِه، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُه كَرِيماً مِيلَادُه، وأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ وطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّه لِلّٰه بِخَلْقِه أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِه، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِه، فَهَدَاهُمْ بِه مِنَ الضَّلَالَةِ وأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِه مِنَ الْجَهَالَةِ، ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَه لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِقَاءَه، ورَضِيَ لَه مَا عِنْدَه وأَكْرَمَه عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، ورَغِبَ بِه عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى، فَقَبَضَه إِلَيْه كَرِيماً ﷺ، وخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ولَا عَلَمٍ قَائِمٍ»[1].

وأنَّ إرساله تعالى لنبيه محمد ﷺ تكليفٌ بترشيد أمةٍ، لها قناعاتها وممارساتها، فلو لم يكن المرسَل جامعاً لخصائص ذاتية، وكفاءات مؤهلة لتلقي الفيض الإلهي، لما كلّفه تعالى بذلك، وإلا كان نقضاً للغرض من الإرسال، وحاشاه تعالى، كما لم تكن إرادةُ الإرسال موجدةً للأهلية، وإلا فهو الجبر، وحينها لم يكن الانقياد بالإرادة، ولا يستحق العبد جزاءً عليه، بعدما قد قُسِرعلى الاستجابة، بل كان ظلماً،

(١) - نهج البلاغة ١/٤٣-٤٤ الخطبة ١.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١).

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٢).

إذن, كان المُرسَل ﷺ متحلياً بمقومات الاستعداد واللياقة لأداء الرسالة الإلهية، المستوعبة لمفاهيم الفلاح والصلاح والرشاد، وتنشيط المغروس الفطري منها في الإنسان، وتنميته بحيث يترعرع مستقيماً سليماً عن التأثر بسلبيات المجتمع، لما أتاحه له من أجواء المناعة، ومناخ الاستقامة، فلو خرج عنها أحدٌ كان مقصِّراً في حق نفسه، وبهذا صحَّ أنْ يكلف تعالى عباده، بعدما أقام الحجة لهم، فكان فيها تنجيز وتعذير.

وقد أدرك المبعوث ﷺ مبكراً أهمية تغيير حياة الإنسان وتطويرها إلى الأفضل، في عملية شاملة ومتعددة ا لجوانب ومستمرة، لأنَّ الإنسان هو المحور في عمليات التغيير والإصلاح، كما أنه الهدف من عمليات التنمية البشرية وبرامجها المختلفة، والتغييرُ من السنن الكونية الثابتة، فمن الضروري برمجته بما يضمن تقويم الإنسان ببرامج إصلاحية، تعبأ فيه روح العبودية لخالقه تعالى، والمواطنة مع المخلوقين، والمسؤولية اتجاه سائر المخلوقات، فيبتعد

(١) - سورة الكهف، من الآية ٤٩.

(٢) - سورة الإسراء، الآية٤٣.

عن منطلقات العبث والعنف، بل يقترب بوعي من ممارسة الإصلاح والإرشاد والتوعية والتوجيه، حسب طاقته، مستشعراً مسؤوليته في ذلك، وعارفاً بعظيم دوره للمشاركة فيه، وقد اختط القرآن الكريم مناهج ذلك التغيير الإصلاحي، عبر الآيات المباركة، ومن خلال بيانات النبي الأعظم ﷺ وأحاديثه المباركة، ليتأصّل مفهوم التنمية البشرية، ويكون من مرتكزات بناء الإنسان ورسم دوره في الحياة.

وعليه فلم تعد التنمية البشرية من المفاهيم الحديثة، وإنْ شاعت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية «١٩٤٥م»، وخروج البلدان المشارِكة -خاصة الخاسرة في الحرب- مصدومة من الدمار البشري والاقتصادي الهائل، فحاولوا الإسراع في الخروج من النفق المظلم الذي دخلت فيه بسبب الحرب ومخلفاتها الكارثية، وشرعوا آنذاك بإعداد الخطط لإيجاد بيئة مناسبة للإنسان وممارسته الحياتية، ومع ذلك ظلَّ مصطلحُ التنمية البشرية -عالمياً- مقتصراً على الخطاب الاقتصادي والسياسي لحد تسعينات القرن الماضي، ولم يتبلور في الخطاب الفكري والمعرفي إلا متأخراً من هذا القرن، لكنه متجذرٌ في مبادئ الإسلام وقيمِهِ الفكرية، وله أسسه النظرية وتطبيقاته في القرآن الكريم وتراث نبينا الأعظم ﷺ، ولو لم تُعرّف بمصطلح التنمية البشرية، كغيرها من المفاهيم التي تعددت تسمياتها حسب المستعملين، لأنَّ السعي

للتغيير والتطور والنماء، ملازم لمسيرة الإنسان الحياتية، ومن وسائل تطور الحياة البشرية على الأرض، فهو ممتد بامتداد الوجود الإنساني، لكنه لم يستغنِ عن بلورة بعض التفاصيل، كتوضيح ملامح التنمية البشرية في تراث الإسلام -قرآناً وسنةً-، وتنبيه الأمة على سبقه في هذا المضمار، وتعريفهم بما أشار اليه ﷺ من قدرة الإنسان على تنمية نفسه لنفسه بنفسه، وبدون الخروج عن سياق مجتمعه، ليتصل الحراك عبر الأجيال زماناً، وفي المواقع الجغرافية والبيئية مكاناً، لما أودعه تعالى في الإنسان -عقلياً وجسدياً- من قدرةٍ على استيفاء حاجته الإنسانية في النمو والنضج والاستقرار، ليُميّز بين صالح الأشياء وطالحها، مستعيناً بسلسلة من المفاهيم والمبادئ، مما يجذّر فيه الشعور بالمسؤولية، ويحفّزه للمشاركة مع الآخر، في مجالات الإنتاج، ورسم السياسة الاقتصادية والمالية، وخطط العمل السياسي ومجالاته، وإدارة السلطة والعلاقة مع مختلف الشرائح، والعمل على تحسين مصادر الثروة ومعايير تملكها وتوزيعها، وترسيخ قيم الانتماء للدين والوطن والمحافظة على الهوية، وأنها لن تتعارض مع التطلعات للتطوير والتجديد كأداةٍ للتقدم والتنمية، وغيرها من المدخلات والسياقات المجتمعية التي تفرزها حاجة الإنسان، ويبرزها تكاملُهُ مع الآخر، تحقيقاً للأمل الإلهي في نهوض الإنسان بمنصب الخلافة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (١).

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (٢).

مما يجعله -الإنسان- محوراً محرّكاً لعمليات البناء والتنمية والتطوير للمجتمع، ومتحملاً للأمانة، قال تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (٣).

بما يقتضي استعداده ولياقته لذلك، مع احتياجه الى معرفة قواعد أداء الأمانة، ومقتضيات مقام الخلافة، فكان في الآيات الكريمة أو الأحاديث المباركة، ما يعرفه ذلك، من خلال بث مفاهيم:

١ـ التزكية:

إذ قال تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا،

(١) - سورة البقرة، من الآية ٣٠.

(٢) - سورة:ص، من الآية ٢٦.

(٣) - سورة الأحزاب، من الآية ٧٢.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

بما للتزكية من معنى النمو والزيادة والطُهر(٢)، وهو مما تحتاجه خطط التنمية البشرية، لتكافح الفساد والتخلف بأشكالهما المختلفة، فلولا ذلك لاندثرت مبادئ النزاهة لدى الإنسان.

٢ـ التنشئة والإعمار:

قال تعالى:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (٣).

بما يعنيان من وجود إنسان قادر على التعمير -مهما بلغ سعيه-، ولا تتم قدرته بمجرد قوته البنيوية دون ارتباطه الفكري وانتمائه الإيماني، حتى يدوم سعيه ولا ينكفئ، وهذا عنصر أساس في إنجاح العملية التنموية، وإلا فلا جدوى من برامج دون كفاءات عاملة.

---

(١) - سورة الشمس، الآيات ٧-١٠.

(٢) - ينظر:مقاييس اللغة، ابن فارس ١٨/٣.

(٣) - سورة هود، الآية ٦١.

٣ـ التمكين:

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ (١).

بما يستبطن تهيئة السُبُل وتوفير المعدات لذلك، وإلا لما تمَّ التمكين، بينما أخبر تعالى بتحققه، فلا بد من وجود مستلزمات الاستقرار والقدرة على العمل التنموي بجميع مفاصله، وهذا أهم ما تفتقر اليه برامج التنمية البشرية.

٤ـ التسخير:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (٢).

بما يمثِّل تفعيلاً للتمكين في الأرض، وتكميلاً لدوره، حيث لا يتسنى العمل دون تيسير المعدات واتاحة الإمكانات، وهو ما تفضل سبحانه به، إذ أقدر الإنسان على الإفادة مما في

(١) - سورة الأعراف، من الآية ١٠.

(٢) - سورة لقمان، من الآية ٢٠.

السموات والأرض، لأنه تعالى:

﴿هوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١).

واذا أساء الإنسان-أحياناً- استخدام الثروات والموارد الطبيعية.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

فاستحالت المصادر الطبيعية الى تهديد حقيقي بكوارث وبراكين واحتباس حراري وتغيّر بيئي وأمراض مزمنة وغيرها، الأمر الذي يُلزم الجميع بالعودة الى الحكمة وحُسن التدبير، ليتحقق المرجو من التنمية البشرية.

(١) - سورة الملك، الآية ١٥.

(٢) - سورة الروم، الآية ٤١.

٥ـ السعي:

قال تعالى:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

بما يعكسه من تأكيد على مفهوم العمل والاعتماد على النفس في الوصول الى الأماني والآمال، ثم تحمّل المسؤولية في المحافظة على المنجز والاستمرار في المشوار، بدون أنْ يقتصر أسلوب السعي المطلوب على آلية بعينها، بل يشمل البدء بعمل، أو تطوير الموجود من الخبرة والمهارة والقابلية، أو تجديد أدوات التنفيذ، أو إبداع وسائل واستحداث طرق، بل جميع ما يسهم في تحفيز الموارد البشرية على بذل أقصى الجهود من أجل رفع مستوى الفرد وتنمية المجتمع، الأمر الذي يرسخ المسؤولية الفردية والنوعية في النفوس، ويجعلهما من أولويات المواطن والدولة، فلا يتغافل عنهما أحد، لأنه كما قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها، وهي مسؤولة، والعبد راع على مال سيده، وهو مسؤول، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول»[٢].

(١) - سورة النجم، الآية ٣٩.

(٢) - مسند أحمد ٥/٢، «عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:...»، وعنه في عوالي اللئالي، للأحسائي١/١٢٩.

وقال ﷺ أيضاً: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت»[1].

(١) - أمالي الشيخ الصدوق٩٣ برقم٧٠ قال: (حدثنا محمد بن أحمد الأسدي البردعي، قال: حدثتنا رقية بنت إسحاق بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيها، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله لله: . ..)، لكن رواه الترمذي في السنن ٣٦/٤ برقم ٢٥٣٢ قال: (حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، أخبرنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله ابن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل، وعن ما له من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه «هذا حديث حسن صحيح. ..)، والغريب إسقاط: عن أربع...وعن حبنا أهل البيت!!!، مع أنَّ النقاش الأصفهاني الخليلي الحنبلي (ت٤١٤هـ) في كتابه فوائد العراقيين ٥٠ ح٤ قال: (أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن أبي حصين، ثنا جدي أبوحصين محمد بن الحسين الوداعي، ثنا أحمد بن صبيح الأسدي، ثنا السرى بن عبد الله السلمي، عن زياد بن المنذر عن نافع بن الحارث عن أبي برزة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن حوله جلوس: « لا، والذي نفسي بيده لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه، وعن حبنا أهل البيت، فقال عمر رضي الله عنه: وما آية حبكم من بعدك ؟ قال: فوضع يده على رأس علي، وحوالي جنبه، قال: « آية حبنا من بعدي، حب هذا)، وكذلك الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤٦/١٠رواه أيضاً (عن أبي برزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربعة عن جسده فيما أبلاه، وعمره فيما أفناه، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت، قيل يا رسول الله: فما علامة حبكم؟، فضرب بيده على منكب علي رضي الله عنه)، كما رواه عن ابن عباس هو، والطبراني في المعجم الأوسط ١٥٥/٩-١٥٦ (عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفنى، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين كسبه، وعن حبنا أهل البيت)، وأيضاً في المعجم الكبير ٨٣/١١-٨٤، فسبحان الله أين أمانة النقل؟!.

٦ـ العمل:

قال تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾ (٢).

بما يمنح فرصة كبيرة لتدوير عجلة العمل عامةً، وتنمية الموارد البشرية خاصةً، بعدما قدّم الضمانات اللازمة للانطلاقة الأولى، من خلال الجزاء والحساب، مما يُحدث انجذاباً نفسياً، وتعبئة جسدية للمضي قُدُماً نحو الإخلاص والعمل بمهنية، ولو برجاء الثواب، أو لتوقي العقاب.

وأنَّ هذا العمل عبادياً أم مهنياً، قصدياً أم بدنياً، كفيلٌ بدفع الإنسان وتشجيعه على المواصلة، رغبةً أم رهبةً، كما يحافظ على ديمومة العمل التنموي، في مختلف قطاعاته، وبذلك تعمر الدنيا، وتدوم الحيوية.

---

(١) - سورة التوبة، الآية ١٠٥.

(٢) - سورة الكهف، الآية٣٠.

ولا بأس في هذا المقام أن نستعرض تفاعل النبي الأعظم محمد ﷺ مع العمل من خلال القول والفعل:

أ ـ وقد حرص النبي الأعظم ﷺ على العمل بنفسه، فقد قال ﷺ : «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم، قال له أصحابه: وأنتَ يا رسول الله؟! قال: وأنا، كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط...»[١]، كما «أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ اشْتَرَى عِيراً أَتَتْ مِنَ الشَّام، فَاسْتَفْضَلَ فِيهَا مَا قَضَى دَيْنَه وقَسَمَ فِي قَرَابَتِه... »[٢]، بل لمَا « ...كانت خديجة ابنة خويلد، امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه،... فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت اليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها ميسرة،... ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة،... فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً...»[٣].

---

(١) - سنن ابن ماجة ٧٢٧/٢، باب الصناعات، رقم٢١٤٩، طبقات ابن سعد ١٢٥/١.

(٢) - الكافي، للشيخ الكليني ٧٥/٥ ح٨.

(٣) - سيرة ابن اسحاق ٦٠ رقم ٥٨.

ب ـ كما حثَّ ﷺ على ممارسة العمل اليدوي -بما يشمل الصناعة والزراعة والرعي والحِرف والمهن الأخرى-، فقد فقال ﷺ: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده...»[١]

ت ـ ولم يكتف بذلك حتى أكد على تحسين نوعية المُنتَج، وتفعيل دور السيطرة النوعية في ضمير العامل، فقد قال ﷺ: «إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يتقنه»[٢]، أو «ويحب الله العامل إذا عمل أن يتقن»[٣]، وقال ﷺ: «خير الكسب كسب العامل إذا نصح»[٤]، أو «يحب الله للعامل إذا عمل أن يُحسن»[٥].

ث ـ بل حتى أنه ﷺ مارس ذلك بنفسه، ولم يكتفِ بالتنظير، وذلك أنَّه ﷺ: «لَحَّدَ سعدَ بن معاذ وسوّى اللِبْنَ عليه، وجعل يقول: ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً، -يسد به ما بين اللِبْن-، فلما أنْ فرغ وحثا التراب عليه وسوّى قبرَهُ، قال رسول الله ﷺ: إني لأعلم أنه سيبلى ويصل إليه البِلاء، ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملا أحكمه»[٦]، مما يدل على

(١) - سننابن ماجة ٢/٧٢٤ رقم ٢١٣٨.

(٢) - مسند أبي يعلى ٧/٣٥٠ رقم ٤٣٨٦، المعجم الأوسط، الطبراني ١/٢٧٥.

(٣) - مجمع الزوائد، الهيثمي ٤/٩٨.

(٤) - مسند أحمد ٢/٣٣٤.

(٥) - المعجم الكبير، الطبراني ١٩/٢٠٠.

(٦) - وسائل الشيعة، الشيخ الحر ٢/٨٨٤ ب ٦٠ ح٢، نقلاً عن أمالي الشيخ

جدية في التنظير والتطبيق، حتى استعان بمؤثرات الترغيب والمحفزات النفسية، ليصل الى مراده في تصحيح خلل كبير يتهاون به الإنسان، مع أنَّ عواقبه سيئة جداً، ومن أضرِّها الفساد الإداري أو المهني أو المالي، وهو مدمِّر للعباد والبلاد، لتضاؤل نسبة الجودة النوعية، وعندها لا تنجح برامج التنمية مَهْما خُطّط لها، وتزداد مسؤولية الدولة في محاربة الفساد بأشكاله، والتصدي لما يعيق التنمية البشرية، كون ذلك ضمن مسؤوليتها العامة.

٧- التخطيط والإعداد الجيد للبرامج والخطط المستقبلية:

إذ لا تنتج ما لم تكن استعدادات مناسبة للعمل التنموي، لاعتماده أساساً على حُسن التدبير، ودراسة واقع الفرد والمجتمع، ثم تحليله بايجابياته وسلبياته، ومعالجة المشكلات القائمة، ودراسة التوقعات المستقبلية بالمقاييس العلمية واقتراح الرؤى النافعة لذلك، كما يستفاد من قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا

الصدوق ٤٦٨.

﴿مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (١).

بدون أنْ يعيق ورود الآية في الشأن الحربي، فالتخطيط للحرب -وهو طارئ مؤقت- لازم، لكنه للسِلْم ألزم، مع ما يكتنفه من طوارئ تضيق معها سبل الحياة، ولذا كان التخطيط متجلياً في ما اقتصه من خبر النبي يوسف عليه السلام بقوله تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٢).

مما يبرز أهمية التخطيط المستقبلي وإعداد مراكز للدراسات، لأنَّ مهما كانت ضرورة توفير الأمن الغذائي لشعب واحد، في موقع محدد، فإنَّ تأمين ذلك وسواه من أسباب التنمية البشرية، أكثر ضرورة، لأهمية تأمين مستقبل شعوب دول العالَم جميعاً، فإنها المجتمع الذي يشار بلفظ: الناس، في قوله ﷺ: «خير الناس مَنْ نفع الناس»(٣).

(١) - سورة الأنفال، الآية٦٠.

(٢) - سورة يوسف، الآية ٤٧.

(٣) - شعب الإيمان، البيهقي ١١٧/٦ برقم٧٦٥٨.

٨ـ الأمانة العملية:

بما تمثله من ضبط النفس والسيطرة عليها أمام مغرياتٍ تقود الى الخيانة، فهي من أهم خصائص التنمية البشرية ومداخلها، حيث لا تتم عملية التغيير الذاتي أو لدى الآخر ما لم تعتمد الأمانة كمنطلق أساس في توفير مناخ سليم من آفات الخيانة، ولذا قال ﷺ: «لا إيمان لمَنْ لا أمانة له»[١]، «مَنْ خان أمانة في الدنيا ولم يردها إلى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملّتي، ويلقى الله وهو عليه غضبان»[٢]، «الأمانة تجلب الغناء، والخيانة تجلب الفقر»[٣]، «ليس منّا مَنْ يحقر الأمانة حتى يستهلكها إذا استودعها» [٤]، مما يوضح مدى خطورة الابتعاد عن الأمانة كصفة نفسية، بما يلحق الضرر بالفرد، فيساوي غير المؤمن، ويحل عليه الغضب الإلهي- والعياذ بالله-، ويخرج بذلك عن صفات المسلمين، ليتوقع الفقر -مادياً أم معنوياً-، وهذه جميعاً مما يفرُّمنها العاقل، لعدم تكافؤ المعادلة، بعدما كانت «الأمانة غنى، أي سبب الغنى، ومعناه أنَّ الرجل إذا عُرف بها كثُر معاملوه، فصار

(١) - مسند أحمد ١٣٥/٣، النوادر للراوندي ٩١.

(٢) - الأمالي للشيخ الصدوق ٥١٦.

(٣) - الكافي للشيخ الكليني ١٣٣/٥ ح٧.

(٤) - مستدرك الوسائل للشيخ النوري ١٢/١٤ ح٢.

ذلك سببا لغناه»[١]، بل قد حثَّ ﷺ على مراقبة أداء الفرد، وأن لا يقتصر التقييم على سلوكه الشخصي، لعدم تعبيره دائماً عن خصاله النفسية التي يحتاجها المجتمع، لسهولة تقمّص الأدوار وممارسة الازدواجية مع الآخر، فقال ﷺ: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج، والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»[٢]، بما يشير الى ضرورة الفصل بين القناعات الشخصية وما يتبعها من ممارسات، وبين مستوى الكفاءة والمهنية والنزاهة والتزام الأخلاق الحميدة، فالفرق بينهما كبير جداً، لفاعلية هذه الصفات في مختلف القطاعات الحياتية المتصلة بشئون أفراد المجتمع الآخرين، والذي بها تدور عجلة الحياة وتتقوّم، بينما قناعات الأشخاص وممارساتهم التي يُفترض أنها انعكاسة صادقة عما يؤمنون به، قد تتخلف في ميادين التجربة والتطبيق، كما أنها قضايا خاصة وليست بعامة، فيلزم الفصل بينهما، والتأكيد الدائم على لزوم التحلي بهما، إذ لا يغني أحدهما عن الآخر، فقد قال سبحانه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

(١) - نهاية ابن الاثير ١/ ٧١.

(٢) - الأمالي للشيخ الصدوق ٣٧٩ ح ٦ رقم ٤٨١.

حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

مادحاً المؤمنين على اتصافهم بالاستقامة الفردية، والارتباط الروحي، مع التأكيد المكرر عليه -أولاً وآخراً- ولكنه لم يكتفِ بذلك، بل أولى عناية خاصة واهتماماً بيّناً، للنزاهة المجتمعية من خلال رعاية الإلتزامات مع الآخر -سواءً بأداء الأمانة أم الوفاء بالعهد- حتى ارتبط استحقاق الفرد لأنْ يرث الفردوس ويخلد في الجنة، باستكمال الشروط المذكورة جميعاً، ويجمع بين العمل والعبادة الروحية والجسدية والمالية، وينزّه نفسه وأعضاءه عما لا يليق، مما يؤكد على ضرورة تحلي الفرد بذلك وانسجامه النفسي والعضوي معه.

٩- الإصلاح:

من خلال مشاركة الفرد بإزاحة الشوائب، والعمل على فلترة المجتمع من مظاهر الفساد بأنواعه، فيكون الحراك عاماً، والتغيير شاملاً، فهي تنقية تسبق التنمية، قال تعالى -على لسان نبيه شعيب عليه السلام- :

(١) - سورة المؤمنون، الآيات ١-١١.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١].

لفاعلية دور الفرد في المجتمع، وقوة تأثيره في تغيير البيئة العامة وتطويرها، فالإنسان محور مهم وأساس في ذلك، يلزم البدء بإصلاحه لتنجح خطط التنمية كافة، وإلا كانت شعارية أكثر من كونها واقعية، كما يلزم أنْ تكون شاملة ومستدامة، فلا تقتصر على مجال دون آخر، علماً وعملاً، مع أولوية المعرفة في تنشيط عوامل التغيير وفاعليتها.

١٠ ـ المعرفة:

لما تمثله من دور كبير في تحقيق التطوير الشامل، وتجذيره في الفرد والمجتمع، لأنها من مقومات الاستجابة التي تعتمد عليها التنمية، بعد ما كانت موجبة للسكون والطمأنينة[٢]، فتستقر في نفس الفرد المبادئ والقيم التنموية، وهو ما يحتاج الى العلم كركيزة للتلقي والتفاعل، قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٣].

---

(١) - سورة هود، الآية ٨٨.

(٢) - ينظر:مقاييس اللغة، ابن فارس ٢٨١/٤.

(٣) - سورة الزمر، الآية ٩.

متيحاً بذلك مساحة واسعة لتدوير المعرفة والعلم، وإنْ لم يدرك أهميتهما الا قليل، حيث يستدل أولو الألباب[١] على ذلك بيُسر وسهولة، بخلاف غيرهم، ولذا توجه لهم الخطاب المعرفي، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

مما يوضح العلاقة بين المعرفة والتنمية.

وجميع هذه المفاهيم العشرة، مما تعكس أنّ الإنسان قيمة كبرى ورصيد مجتمعي مهم، فأولاه الإسلام عناية فائقة، إذ سعى -بنصوصه القرآنية والنبوية- لترشيده فكرياً ونفسياً وجسدياً، وأراد له ومنه النهوض على أساس الالتزام الكامل بالمبادئ الحقة، لينطلق الفرد في عملية التأهيل الكبرى من نفسه، ثم ينتجه لمجتمعه، بعدما كان -الإنسان- خليفةَ الله تعالى في أرضه، فهو أول بذرة في حقل التنمية الشاملة، لغرس مفاهيم المحبةِ والأخوةِ، والشهامةِ والشجاعةِ، والصلاحِ والفلاحِ، وغيرِها مما يبلور الحالة الفضلى، وينشط

(١) - ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٢٠٠: (اللب معروف من كل شيء وهو خالصه وما ينتقى منه ولذلك سمى العقل لباً، ورجل لبيب أي عاقل).

(٢) - سورة يونس، الآية٣٥.

خلاياها، ويفعِّل دورها الذهبي في تكميل الإنسان وترصين سلوكه الشخصي والنوعي، مهيئاً ﷺ بذلك للإنسان فرصةً مناسبةً في ترتيب خياراته المتعددة وتنسيقها وفقاً للمقررات الصحيحة القويمة مما جاء به الثقلان -الكتاب والعترة- وأكدا عليه واهتما به، فاختار الرسول الأعظم ﷺ لتنمية الإنسان ما يعزز في نفسه روح المثابرة والعمل، ويثير لديه طموحات التأثير في غيره، ليكون محوراً يستقطب الآخر، ويهتم بأمره، وتبدأ عندها أولى خطوات إصلاح المجتمع داخلياً.

كما اهتم ﷺ منذ البداية بتأسيس منظومة فكرية وأخلاقية متماسكة، من شأنها إحداث تغيير جذري في البنية العامة، مُرَسِخاً قيم الإنسانية، ومُرَشِداً لمفاهيم كثيرة مما ساد بين الناس قبله، فدعا الى مجتمع تسوده روح الأخوة والمودة، ونهى عن استغلال الآخر، وتغليب نزعات الأنا والمصالح، فيتحول الفرد الى آلة منتجة، أو أداة متحركة، كما حفّز مقومات الإرادة الكاملة للإنسان، وأودعه مزيداً مما يكسبه المناعة الذاتية ضد ما يخترق إنسانيته من الداخل والخارج، لعلمه ﷺ بقوة تأثير المحيط والبيئة في الفرد، وسرعة تأثره بهما، فلم يشأ أنْ يُسلمه لوحده في معترك تزدحم فيه الأحداث والحوادث، بل ساندَهُ وآزره، مبدياً كافة مظاهر الاهتمام والرعاية، وموفراً له ظروف

الاستجابة الفاعلة لعوامل الإنقاذ وخطط الترشيد ومناهج التهذيب، مما يؤكد مواكبته ﷺ للمشكلة البشرية عن قرب، واتخاذه إجراءات الوقاية منها والسلامة فيها، وهذا ما كفل له فرصة نجاح أكبر مما اتخذته جهات أخرى، والسبب في ذلك -سوى المدد الغيبي- اهتمام النبي الأعظم ﷺ بتقويم مسيرة الإنسان لأنه إنسان دون غرض مادي آخر، بينما كان غيره يخطط للانتفاع منه أو ابتزازه كثروةٍ، والشواهد الحية على ذلك كفيلة بتصويب هذه النظرة أو تخطئتها، فلم تغب صور توريط الإنسان في الرذيلة، بحجة أنها وسيلة للشهرة أو الشهوة، كما لم تتوارَ عن مسرح الأحداث مناظر العنف، بذريعة القضاء على التطرف، فهذا وسواه إمارات تؤكد الحاجة الى الاحتكام لحاكمية الله تعالى، وضرورة الالتجاء إليه في فصل الخصومات وفض النزاعات البشرية، وهو ما أوضح تعالى سبيله بقوله:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (١).

في إشارة واضحة لضرورة التلاحم العضوي مع مفردات الخطاب النبوي، وعدم الحياد عنه، فمخالفته منافاة واضحة للتقوى المأمور بها.

وأنَّ من بنود ما آتانا به الرسول ﷺ، تمتين أواصر العلاقة

(١) سورة الحشر، من الآية٧.

بين الأفراد، وترسيخ قيم المحبة في النفوس، وتأصيلها كواحدة من أهم المفردات في محيط الحياة، فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: «خير الناس من نفع الناس»[١]، منبهاً على ضرورة إشاعة مفاهيم التعاون والتآزر والعمل بروح الفريق الواحد، بما يحقق مضامين رسالة الإسلام، فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ، مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله عز وجل في حاجته، ومَنْ فرّج عن مسلم كربةً، فرّج الله عز وجل عنه بها كربةً من كرب يوم القيامةً، ومَنْ ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٢]، ومَنْ انتهج الإسلام وتمثّله في حياته، فقد اتبع محمداً ﷺ، وضمن محبة الله تعالى ومغفرته له، قال تعالى حاكياً عن نبيه ﷺ: «فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»[٣]، ليتجسد ارتباط إيماني محكم بين ثلاثية المرسِل والرسول والمرسَل اليه، وبهذا قد احتوى ﷺ ما للتنمية البشرية من بُعدين:

الأول:

النمو الإنساني في مختلف المراحل، لتنمية قدرات الإنسان وطاقاته الروحية والعقلية والنفسية والبدنية والاجتماعية، فيواجه متغيرات الحياة، عبر نظرة عميقة حكيمة، ولا

(١) شعب الإيمان، البيهقي ١١٧/٦ برقم٧٦٥٨.

(٢) مسند أحمد ٢ /٩١، ونحوه في عوالي اللئالي -الأحسائي ١ -/١٢٨.

(٣) سورة آل عمران، من الآية٣١.

ينكص عنها، بل يتواصل مع الآخر، لأنهما سوياً في طريق التكامل والتغلب على معوقات العمل، بعدما أدركا ضرورة الإفادة من المواهب المتعددة.

الثاني:

استثمار الموارد والأنشطة الاقتصادية المولِّدة للثروة والمحركة لعجلة الإنتاج، فتنمو قدرات المجتمع، عبر الاهتمام بتطوير هياكله البنيوية المؤسسية، لتتاح المشاركة لأوسع قاعدة جماهيرية في التنمية.

وأنَّ مفهوم «خير الناس مَنْ نفع الناس»، جامع لهذين البُعدين، من حيث تنمية الإنسان وتفعيل طاقاته الإبداعية، مع تنشيط قدراته في الإنتاج والإعمار، لكن من دون الفصل بين ا لجانب الإيماني الروحاني عن البدني المادي، لما يشكلان من إطار عام يتحرك من خلاله الإنسان، فهو بحاجة الى تنميته فكرياً وصحياً ومهنياً وأُسرياً واجتماعياً، بحيث أنَّ بعضها لا يحقق الاستقرار المنشود، الذي حرصت الدراسات والبحوث والمؤتمرات على تحقيقه، والسر في ذلك، كون الإنسان خليفة الله تعالى في بلاده وبين عباده، فيجب التعاطي مع مشكلاته كوحدة مترابطة غير قابلة للتجزئة، وتُقترح الحلول في ضوء ذلك، وليس بنظرة أحادية تجتزأ الوحدة المكونة من الروح وا لجسد، والذي بهما كان الإنسان

إنساناً، يسعى نحو التكامل، ويحرص على تحقيق هدفه في الوصول إلى:

﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

لأنه:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

والعاقل لا يفوّت دائماً بزائل، نعم يتعاطاه بقدر دفع ضرورته، ثم ينصرف عنه الى ما هو الأبقى، وبناءً على هذا.. فسائر أهداف الإنسان في الحياة، لا بد من تكييفها مع هذا الهدف، فالحصول على المال كهدف مثلاً، لا بد من انسجامه مع غاية الوصول للجنة، وهكذا الجاه والسلطة وسواهما من أهداف، تنسيقها مع المقاييس والضوابط الثابتة، لئلا تتحول إلى عقدة، بعدما كانت حلاً، فلا يطلب الإنسان تطوير نفسه بما لا يتفق مع الثوابت العقلية أو الشرعية، بل عليه التأقلم معهما، ليضمن نجاته.

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٣٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

الفصل الثالث

التراحم في الحديث الشريف

إنَّ التراحم من صفات الإنسان المهمة، إذ يلهم المتراحمين بعناصر البقاء والارتقاء، حيث يملأ فراغاً نفسياً وروحياً كبيراً، لاستشعارهما بالسكون والاطمئنان، الى مَنْ بادَلَهُ مشاعر المحبة والمودة والعطف والحنان، فيحتفظ له بذلك في نفسه، ويتعامل مع غيره بتلك المشاعر، لأنها ما واجهه في تجربته الشخصية، بينما المجتمع الذي تسود فيه تصرفات معاكسة، تطفو عليه الكراهية والعنف والاستبداد والأنا والقسوة، ثم تنتقل بدورها تدريجا بين الأفراد، لتصبح ظاهرة مستديمة، وهو على العكس مما أراده الإسلام في مشروعه للتنمية البشرية، ليُشجع على التواصل والتلاحم بين الأفراد، فلا يستشعر أحدٌ مشاعر الغربة، أو يستوحش لموقف مّا، إذ احتواه مجتمعه وبدد مخاوفه.

واتساقاً مع هذا المبدأ كان الغرض مما رُوي عن رسول الله ﷺ، في التراحم، لكونه أفضل وسيلة للتعايش السلمي في المجتمع، بما يوجده من فرص نجاح الفرد في كسب الآخر، والعمل على المشتركات بينهما، وتطوير العلاقة معه وتنميتها، بما يضمن أُلفته ومودته، ويمنع من حدوث ترسبات في العلاقة بينهما، ومن تلك الأحاديث الشريفة:

١. قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء...»[١].

٢. وقوله ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٢].

٣. وقوله ﷺ: «مَنْ لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[٣].

٤. وقوله ﷺ: «مَنْ لا يَرحم لا يُرحم، ومَنْ لا يغفر لا يُغفر له، ومَنْ لا يتب لا يُتاب عليه»[٤].

٥. وقوله ﷺ: «مَنْ رحم ولو ذبيحة عصفور، رحمه الله يوم القيامة» [٥].

٦. وقوله ﷺ «جواباً لمَنْ قال له:أحبُّ أن يرحمني ربي؟.. ارحم نفسك، وارحم خلقَ الله، يرحمك الله»[٦].

٧. وقوله ﷺ «ينادي مناد في النار: يا حنان يا منان نجني

(١) - سنن الترمذي ٢١٧/٣ رقم١٩٨٩ ، جامع أحاديث الشيعة ٥٢٩/١٥ رقم ١٧٠٠.

(٢) - مسند أحمد ، ٢٠٤/٥.

(٣) - مسند أحمد ، ٣٥٨/٤، صحيح مسلم ٧٧/٧.

(٤) - المعجم الكبير، للطبراني٣٥١/٢.

(٥) - المعجم الكبير، للطبراني ٢٣٤/٨ ، شُعب الإيمان، للبيهقي ٤٨٢/٧ رقم١١٠٧٠.

(٦) - كنز العمال، المتقي الهندي ١٢٨/١٦.

من النار، فيأمر الله مَلَكاً فيخرجه حتى يقف بين يديه، فيقول الله عز وجل: هل رحمت عصفوراً».[١]

٨. وقوله ﷺ: «مَنْ لا يرحم مَنْ في الأرض، لا يرحمه مَنْ في السماء»[٢].

٩. وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا رحيم، قالوا: كلنا رحيم، قال: لا، حتى تُرْحم العامةُ»[٣].

١٠. وقوله ﷺ: «لن تؤمنوا حتى تحابّوا، أفلا أدلكم على ما تحابّوا عليه، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أفشوا السلام بينكم تحابوا، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة»[٤].

١١. وقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة منكم إلا رحيم، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: ليس رحمةَ أحدِكم نفسه وأهل بيته، حتى يرحم الناس»[٥].

---

(١) - المصدر نفسه ١٦٧/٣ رقم٥٩٩٢.

(٢) - المعجم الكبير، الطبراني ٣٥٥/٢.

(٣) - كنز العمال، المتقي الهندي ١٦٧/٣ رقم٥٩٨٩.

(٤) - المستدرك، الحاكم النيسابوري ١٦٨/٤.

(٥) - شُعب الإيمان، البيهقي ٤٧٩/٧ رقم ١١٠٥٩.

١٢. وقوله ﷺ: «إنَّ الله رحيم، يحب الرحيم، يضع رحمته على كل رحيم» [١].

١٣. وقوله ﷺ: «خاب عبد وخسر لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر» [٢].

١٤. وقوله ﷺ: «يا علي:اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فان اللعنة تنزل عليهم، يا علي أن الله تعالى خلق المعروف وخلق له أهلاً، فحببه إليهم، وحبب إليهم فعاله، ووجه إليهم طلابه، كما وَجّهَ الماء في الأرض ا لجريبة، لتحيى به، ويحيى بها أهلها، يا علي إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» [٣].

وهي جميعاً تنمّي في الناس «أن يرحم بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر» [٤]، وهو ما يشيع أجواء التواصل والتحابب، بما يوجب التعاطف وقت الشدة، والمواساة في الضائقة، ليكون وثيقة تأمين اجتماعي ضد التفكك وتخلي الفرد عن الآخر، حيث لا تصنع السلطة أو ا لجاه أو المال أو

(١) - كنز العمال، المتقي الهندي ٢٤٩/٤ رقم ١٠٣٨١.
(٢) - الجامع الصغير ٥٩٨/١ رقم٣٨٧٣.
(٣) - المستدرك، الحاكم النيسابوري ٣٢١/٤.
(٤) - فتح الباري، ابن حجر ٣٦٧/١٠.

غيرها شيئاً، إزاء انفراج أزمة مّا، لكن العلاقات الاجتماعية تصنع كثيراً، ولا أقل من تخفيفها الألم النفسي، إذ كما قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن قلب الظمآن إلى الماء البارد» [١]، فلو لم تكن فائدة حسية، فروحية نفسية، تساعد على التخفف مما ألمَّ، ثم التفكير الصحيح في الخروج من المأزق، ومواصلة المشوار.

وهذه التنمية الروحية، وهي من أنواع التنمية في الإسلام، لأنها عملية تغيير نفسي وتطوير ذاتي، بتجذير الخصال الحميدة، والحث على رعايتها، ومواصلة تنميتها، عبر الاتصاف الدائم بها وعدم إهمال الحاصل منها، ليأتي دور الرسول المبعوث ﷺ مرشِداً وراعياً، حتى قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [٢]، مما يؤكد وجود استعداد فطري لدى الإنسان للتفاعل الإيجابي، لكنه لا يستغني عن الموجِّه والمشرف، وهو إما مَنْ يصدر منه الخطأ، أو لا يصدر، ولما كان الأول مساوياً، فلا يستطيع أنْ يغيّر شيئاً، فيتعين نهوض مَنْ لا يصدر منه خطأ بذلك التوجيه والإشراف، لأنه قد شهد له تعالى بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٣].

---

(١) - النوادر، الراوندي ١٠٠.

(٢) - السنن الكبرى، للبيهقي ١٩٢/١٠.

(٣) - سورة القلم، الآية ٤.

وقوله تعالى:

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ (١).

وقوله عز وجل:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

وقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣).

مما يبيّن أن الرسول الأعظم ﷺ ذو خُلُق، وذو رأفة وذو رحمة، بل كانت الرحمة هدفَ إرساله ﷺ، حتى «سماه الله تعالى باسمين من أسمائه»(٤)، وصارت تلك الصفات من خُلُقه، و«الخُلُق هو: المَلَكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة، وينقسم إلى الفضيلة وهي المدوحة كالعفة والشجاعة، والرذيلة وهي المذمومة كالشره وا لجبن، لكنه إذا أطلق فُهِمَ منه الخُلُقُ الحسن... والآية وإن كانت في

(١) - سورة التوبة، من الآية ٦١.

(٢) - سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٣) - سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٤) - تفسير الرازي ٢٣٧/١٦.

نفسها تمدح حسن خلقه ﷺ وتعظّمه، غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك»[١]، وسائر ما أدّبه «الله به مما نزل به القرآن من الإحسان إلى الناس، والعفو، والتجاوز، وصلة الأرحام، وإعطاء النصفة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك...»[٢]، فلذا وُصِفَ في مقام تعريفه بما لا يفارقه من نعوته الخاصة، التي هي مدعاة لتأثر غيره بها، فتنتشر وتشيع بين الناس عامة، الأمر الذي يعكس بوضوح عظمة الخُلُق فيه، وأهميته لغيره، مما يُرجى منه أنْ يسهم في بلورة أفضل الصفات للأمة المتبعة له ﷺ، حيث قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

فلا بد من التأثر بسيرته، والعمل الجاد من أجل ترسيخ ركائز التنمية الروحية، وقيم الأخلاق في الفرد، وتعميمها في المجتمع، ليتربى عليها الجيل الناشئ، وينسجم معها،

---

(١) - تفسير الميزان، السيد الطباطبائي ٣٦٩/١٩.

(٢) - تفسير السمعاني ١٨/٦.

(٣) - سورة الأحزاب، الآية ٢١.

ولا يستغربها، بل يستغرب لو افتقدها يوماً، في وطنه أو في مهجره، فنضمن ترشيد الأفعال، والارتقاء بالإنسان الى مستوى التصرف مع الآخر لإنسانيته، وليس لمصالح ومنافع، لتتوحد الرؤى والأهداف، حول تعزيز موقع الإسلام في النفوس، وعكس صورة صافية عنه ونقاء أخلاقياته وما يفرضه من التزامات على المتدين، ليبين أنّه عقد وثيق يرتبط المسلم من خلاله مع الخالق تعالى والمخلوقين، فلا يخون ولا يحيد عن مجموعة مبادئه كاملة غير مجزأة.

وفي مقدمة تلكم المبادئ التراحم، لحرصه على إشاعة أجواء الرقة والعطف والرأفة بين الناس، ليعتادوها وتكون من أولوياتهم الحياتية اليومية، التي ينقادوا بطباعهم إليها، ويألفوها تلقائياً من دون تكلّف وتطبّع، بل أنَّ التحشيد الروائي -المتقدم بعض نماذجه- لما يعطي إشارات ذوات دلالات معمّقة، على ضرورة إفشاء التعاطف بين طبقات المجتمع، ونبذ العنف وعدم الترويج لمظاهره، والاستعداد النفسي للتسامح والتوافق وإبداء أوسع ما يمكن من المرونة وتقبّل الآخر، فجميع ذلك من الرحمة، وهي من صفاته تعالى، التي رغّب عباده على الاتصاف بها، وممارستها عملياً مهما وسع ذلك، وفي الجزئيات كلِّها، بمختلف أشكال التراحم والتعاطف، ومع جميع مَنْ يتعاطى معهم الإنسان، سواءً مع الأسرة أم غيرها، من كبير أو صغير، ذكر أو أنثى،

غني أو فقير، مسلم أو غيره، وغيرهم حتى الحيوان، لتنتشر أجواء التراحم، ويتشكل المجتمع من لونه، حتى يبرز كظاهرة إيجابية في المجتمع، تستحق الفخر والاعتزاز.

ولما كانت التنمية البشرية، هي: عملية تطوير الكفاءات البشرية وتحسين أدائها في مختلف الميادين الحياتية، لتشارك في حصول عمليات تغيير نوعي في المجتمع، يسهم في الانسجام الاجتماعي.

أو أنها مقاربة تصحيحية متتالية على مدى الزمان ومختلف المكان، وصولاً للأفضل، فالتراحم يساعد على بلورة ذلك وتحقيقه بين الأفراد، وبمديات متسعة، لا تتحدد بظرف معين، بل أنَّ التراحم يوفر المناخ السليم لجهود التنمية كلِّها، ويغرس بذرة الارتقاء بالنفس والمجتمع، من خلال استشعار المسؤولية في التغيير الإيجابي، أو المشاركة الفاعلة فيه، وإلا فلن تتحقق الأماني المعقودة عليه بمجرد ضخ إمكانيات هائلة للتغيير، ما لم يسبقها تغيّر يُسهم في حصول الاستجابة لتلك النظريات، ولا بد لهذا التغيّر أنْ يبتدئ من الفرد نفسه، دون أنْ يتلقاه جاهزاً من غيره، إذ للمشاركة الشخصية الفاعلة، الدور الكبير في التحوّل والتطور، فإنَّ المسؤولية مشتركة بين الجميع، ولا يلقيها قيام أحدٍ بذلك، فالوجوب عيني وليس بكفائي، لاسيما وأنَّ التماهل في ذلك والتعويل على الآخر، مما يقلص من حالات

إبداع الفرد، ويدفعه نحو تلقائية الاستجابة لما يُملى عليه ويُطلب منه، مع أنَّ بوسعه المبادرة إلى تحركٍ تصحيحي، يبدأه من الذات وينتهي بالآخر، فيكون ممارساً لدوره في معالجة نفسه بنفسه، ومشاركاً في معالجة غيره، فكان ذا نشاطٍ متميز، بما يُسجل له.

الخاتمة

إنَّ المقارنة بين الأسلوب النبوي للتنمية البشرية وسواه، لما توضح اعتماد الرسول الأعظم ﷺ على الإنسان كعنصر فعّال في صنع النجاح، فيكون بنفسه لنفسه ولغيره، ليتولد التغيير عبر معاناة وإحساس، فيشعر الإنسان بقيمة ما صنع، ولا يتخلى عنه، كما لا يفرِّط فيه، بينما سائر أساليب التنمية -على أهميتها- قد اعتمدت كثيراً على الحكومات ومراكز صنع القرار، وهو ما يخدش صفاء التجربة، ويؤممها لصالح جهة مّا، يفقد الإنسان قوة حراكه في عملية التغيير، وقد يضعف أمام قوة المؤثرات والفعاليات الأخرى، فيستسلم للإملاءات، بدون أنْ يحقق لذاته شيئاً يذكر، وهذا ما تلافاه الرسول الأعظم ﷺ في رؤيته التنموية، فقد بدأ بالإنسان لينتهي به، فجعله محوراً حيوياً، تدور حوله عملية التغيير والإصلاح، ويمكنه التأقلم مع سائر الشعوب أو الأمم، لكن

كان أسلوب غير الرسول الأعظم ﷺ يعتمد التغيير الناتج عما تقوم به الحكومات أو ا لجهات الأخرى، مع أنه مهما كان فهو بلا إرادة من الفرد بل يُفرض عليه، وبالتالي فهو لم يغيّر ما بنفسه، حتى يعينه الله تعالى على تغيير ما بمجتمعه، لكنه سبحانه قد وعد التغيير بشرط التغيّر، ولا بد من أنْ يكون الإنسان فاعلاً فيه وليس أداةً لفعل غيره، فيتحمل التبعات، وقد لا تكون جميع الخيارات مطمئنة.

نعم، لا يعني رشادُ رؤيته ﷺ وسدادُها، انعكاسَ ذلك على الأمة بكاملها، لأنَّ التراحم فعل اختياري للإنسان، وهو مرهون -كبقية الأفعال الاختيارية- بحصول إرادة الإنسان ا لجادة، ليستتبع ذلك منه تحرّكاً وفعلاً، وإلا فلا يجبر على شيء من ذلك،

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (١).

ولذلك جاء الوصف القرآني للذين معه ﷺ في قوله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٢).

بما ينبئ عن اتصافهم هم بذلك، دون أنْ يكون بإلقاء وجعل، وإلا فلا فضل لهم ليوصفوا به.

(١) - سورة الأنفال، الآية ٤٢.

(٢) - سورة الفتح، من الآية ٢٩.

ومن هنا تتفاوت مستويات الناس في التنمية، بسبب اختلافهم في التعاطي والتفاعل، مما يُحدث نسبيةً في النتائج، فكان حسم ذلك بتحفيز الفرد ذاته ليكون منتجاً تنموياً عبر تحلّيه بصفات إيجابية، ثم تدويره لها مجتمعياً، لتتوزع القوى الفاعلة في المجتمع وتعمل على التغيير بخطة دقيقة متوازنة، يُدرك الإنسان من خلالها فن النجاح، ويتعافى مما اجتاحه من تراكمات ازدحمت في طريق الحياة، حتى ضبّبت الرؤية، وحالت دون الوصول إلى معالجات مفيدة، وها هو الرسول الأعظم ﷺ يوفّر الحلول، لكنها تبقى رهن الاحتكام اليها، والإفادة منها، وإلا فلا ملزم بها إلا إذا قرر الإنسان الأخذ بها، ولهذا حثّ ﷺ على التراحم، كوسيلة لتحقيق التنمية الشاملة ذات الكفاءة على امتصاص الأزمات وحل المشكلات البشرية، لأنَّ بالتراحم يسمو الإنسان ويترفع عن أنْ يَظلم أحداً، أو يتعدى عليه بشيء مهما كان، وبذلك قد توافر المجتمع على تغييرٍ نوعي لكفاءاته البشرية، وتحسينٍ تدريجي لأدائها في مختلف الميادين الحياتية، فيسهم الجميع في الانسجام العام، فكان التراحم بداية التنمية البشرية المنشودة، والحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الفهرس

المقدمة ٣

مقدمة الباحث ٦

تمهيد ١١

الفصل الأول ١٤

التنمية في نشأتها وامتدادها التأريخي كنظرية وممارسة

الفصل الثاني ٢٩

التنمية البشرية في المفهومين القرآني والنبوي

الفصل الثالث ٥٨

التراحم في الحديث الشريف

الخاتمة ٦٧

إنَّ المقارنة بين الأسلوب النبوي للتنمية البشرية وسواه، لما توضح اعتماد الرسول الأعظم ﷺ على الإنسان كعنصر فعّال في صنع النجاح، فيكون بنفسه لنفسه ولغيره، ليتولد التغيير عبر معاناة وإحساس، فيشعر الإنسان بقيمة ما صنع، ولا يتخلى عنه، كما لا يفرِّط فيه، بينما سائر أساليب التنمية -على أهميتها- قد اعتمدت كثيراً على الحكومات ومراكز صنع القرار، وهو ما يخدش صفاء التجربة، ويؤممها لصالح جهة مّا، فيفقد الإنسان قوة حراكه في عملية التغيير، وقد يضعف أمام قوة المؤثرات والفعاليات الأخرى، فيستسلم للإملاءات، بدون أنْ يحقق لذاته شيئاً يذكر، وهذا ما تلافاه الرسول الأعظم ﷺ في رؤيته التنموية؛ فقد بدأ بالإنسان لينتهي به، فجعله محوراً حيوياً، تدور حوله عملية التغيير والإصلاح.